قراءة تحليلية لمضمون وثيقة تاريخية تنفي ضلوع عَرَب بنو هلال في دوافع رحيل الحمّاديين من القلعة إلى بجاية

د/ الرزقي شرقي
قسم الآثار، جامعة أبو بكر بلقايد جامعة تلمسان

الملخص:

تتضمّن هذه الدّراسة قراءة تحليلية لمضمون رسالة رسمية وجهها الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" (465–500هـ/1073–1106م) إلى نظيره الحمّادي "النّاصر بن علناس" (454-481هـ/1062-1088م)، ساعة تأجج حدّة الخلاف بينهما، واشرافهما على المواجهة المسلّحة المباشرة مجدّدا، حيث أفادتنا على هامش موضوعها الرّئيسي بمعلومات هامّة جديرة بالتّمعّن والمناقشة، أغفلتها تماما مصادر التّاريخ الحمّادي من قبل حول مسألة إرغام القبائل العربية الهلالية للحمّاديين على الرّحيل قَصْرًا من القلعة صوب بجاية.

الكلمات الدّالة: عرب بنو هلال؛ الحمّاديون؛ النّاصر بن علناس؛ القلعة ؛ بجاية.

مقدمة:

إذا ما استثنيت الرّواية التّاريخية التّي انفرد بذكرها ابن الأثير "أبو الحسن عليّ بن مكرم"، المُتوفّى سنة (630هـ/1232م) عن بقية المؤرّخين العرب خلال القرون الوسطى؛ ومفادها أنّ بناء مدينة بجاية من قِبَل الحمّاديين، مرده إلى شحنة السّخط والانتقام، التّي كان الحمّاديون يضمرونها لبني عمومتهم الزّيريين، ولاسيما في عَقِب وقْعة "سَبيبة" سنة (457هـ/1064م)[1]؛ وتعطّشهم الشّديد لمداهمة عاصمة خصومهم، مدينة المهدية من عرض البحر، بعدما استحال عليهم أخذها برًّا لاعتبارات تحصّينية طبيعية خالصة[2]؛ فإنّ بقية روايات المصادر التّاريخية الأخرى، تُجْمع على أنّ سبب رحيلهم من القلعة في تجاه بجاية، قد كان قَصْرا؛ ومرده في المقام الأوّل والآخر إلى تشديد الخناق عليهم من طرف القبائل العربية[3] النّازحة وقْتها من إقليم أفريقية (القطر التّونسي حاليا) المجاور، دون أن يستدلّون على حكمهم القاطع بأيّ دليلٍ ملموسٍ.

وإذا كانت هاتان الرّوايتان التّاريخيتان، المتعارضتان شكلا حول سبب رحيل الحمّاديين من القلعة إلى بجاية، فإنّهما تتفقان على أنّ الدّافع، دافع حربيّ واحد في المقام الأوّل، بصرف النّظر إن كان لجوءً اضطراريا للدّفاع عن الذّات أمام خَطْب الأعراب الدّاهم، حيث أتى على الأخضر واليابس على حدّ تصوّيره من طرف بعض المصادر التّاريخية العربية؛ أو اعتباره بمثابة توغّل استراتيجي لمباغتة بني عمومتهم الزّيريين، ومحاولة أخذهم من حيث لا يحتسبون، أي من السّواحل البحرية.

إلاّ أنّ التّحليل المتأنّي لمضمون إحدى رسائل[4] الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" (465–500هـ/1073–1106م)، الموجهة لخصمه الحمّادي "النّاصر بن علناس" (454-481هـ/1062-1088م)، تقدم توضيحًا، وتفسيرًا مُغايرًا تمامًا لهذه المسألة المهمة في تاريخ الدّولة الحمّادية بالمغرب الأوسط حتّى الآن.

1). حضور عرب بنو هلال في نصّ الوثيقة:

"... وتَستدعي ذُؤْبان العرب وصعاليكهم من مُبْتَعدٍ ومُقرَّبٍ. فتُعطيهم ما في خزائنك جُزافًا، وتنفق عليهم ما كنزه أَوَائِلُك إسْرافًا، وتَمْنح أهْل العَشَرات مئين، وأهل المئين آلافًا. كلّ ذلك تَعْتَضِدُ بِهِمُ، وتَعتمد على تَعصُّبِهم لَكَ، وتَألّبهم،

وتعتقد أنّهم جُنَّتُك من المحاذير، وحُمَاك دون المقادير... ولولا مَالُك الذّي ثمّدوه، وشارفوا إلى أن يستنفذوه ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثا على إبالة بلواك؛ وإنّك لَمتداوٍ منهم بسُمٍّ، ومُستريحٍ إلى غمٍّ ...".

2). الظّروف التّاريخية المحيطة بتحرير الرّسالة:

يبدو أنّ هذه الرّسالة المحرّرة بأسلوب بليغ، ونبرة حادّة جدّا من طرف الفقيه، والكاتب الإشبيلي الشّهير، الملقّب بذي الوزارتين: أبو بكر محمّد بن سليمان الكلاعي[5] باسم الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" من شبه جزيرة الأندلس إلى نظيره الحمّادي "النّاصر بن علناس"، المعسكر آنذاك بجنوده على مشارف الحدود الحمّادية المرابطية؛ المتزامن مع وجود خصمه في تلك الأثناء (يوسف بن تاشفين) في الأندلس برسم جهاد النّصارى، ونصرة المسلمين المضطهدين هناك. هي في واقع الأمر ردّ مطوّل لم يستنسخه الشّنتريني بكامله، وإنّما اكتفى بنقل أهم ما جاء فيه من فقرات على رسالة سابقة وجهها النّاصر في وقتٍ سابقٍ إلى يوسف، يشكوه فيها كثرة الاعتداءات المرابطية المتكرّرة على حدوده الغربية بِحِجَجٍ واهيةٍ، دون جدوى، كما يمكن أن يُستشفّ من سياق الحديث في مستهلّ هذه الرّسالة: "ولم تتأوّل أنّ وراء كلّ حُجّة أدْليتها ما يُدْحِضُها، وإزاء كلّ دعوة أبرمتها ما ينقضها، وتلقاء كلّ شكوى صحّحتها ما يمرّضها".

ممّا أثار غضب النّاصر فيما يبدو، ودفع به إلى توجيه حملته الثّأرية المذكورة، حيث انتهى به الأمر للوقوف على مشارف وادي مِنَى[6]، واسترجاع ما سلبه منه الملثمون (المرابطون) في وقت سابق بزعامة أميرهم الجديد "يوسف بن تاشفين" في النّاحية الغربية من بلاده، ساعة انشغاله بالزّيريين في الشّرق، كما يبدو من تتبع تاريخ الوقائع الدّائرة بين الطّرفين، بدءً بتحامل المرابطين على مدينة تلمسان، وما جاورها سنة (454هـ/1062م) بدعوى ملاحقة أهل فاس المناوئين وقتها للحكم المرابطي بمراكش؛ مرورا بالإغارة عليها مرّة ثانية في عام (468هـ/1075م)، حيث كان أميرها آنذاك "العباس بن يحيى الزّناتي"، سليل أسرة "محمّد بن الخير بن خزر المغراوي"[7]. ثمّ إعادة الكرّة عليها مرّة أخرى في سنة (472هـ/1079م) بقيادة قائد جيش المرابطين "مزدلي بن تلّكان اللّمتوني"، حيث تمكن من القضاء على "يَعْلى" ولد حاكم تلمسان الأمير "العبّاس بن يحيى"، وتخريب مصادرها، واغتنام ثرواتها. ثمّ مرّة رابعة بعد عامين من ذلك التّاريخ، أي في سنة (474هـ/1081م)، واعتبارها بمثابة توغّل إستراتيجي، مُمهد لحملات مستقبلية جديدة على حساب الأراضي الحمّادية بالمغرب الأوسط، كما يستشفّ بوضوح من إبقاء بعض سرايا الجيش المرابطي هناك بصورة دائمة، وتعيين على رأسها قائدًا، وحاكمًا عسكريًا كبيرًا في مقام "محمّد بن تنغمر المسّوفي" على حدّ قول السّلاّوي[8]، و"أبو عبد الله محمّد بن يوسف" على حدّ ما جاء في نصّ هذه الوثيقة؛ وأكّدته الأحداث التّاريخية اللاّحقة، كما يُمكن أن يُستنبط من تمكّن المرابطين من دخول مدينة الجزائر على النّحو المعروف بوصفها جزء لا يتجزأ من الأراضي الحمّادية تاريخيًا.

إلاّ أنّ النّاصر لم يكتفِ بردّ الاعتداء على نفسه فحسب، وردّ الصّاع صاعين، ففي سنة (479هـ/1086م)، تاريخ اندلاع الحرب الصّليبية بإقليم الأندلس، المصادف لتاريخ العبور المرابطي الأوّل إلى العُدْوة الشّمالية من مضيق جبل طارق بدعوة من عميد ملوك الطّوائف "المعتمد على الله محمّد بن عباد" (431-488هـ/1039-1095م)، وأمير إمارة أشبيلية لمنازلة الملك المسيحي "ألفونس السّادس بن فاردنند"، ملك قشتالة وليون، المعتدي على حرمة المسلمين بمدينتيْ قورية، وطليطلة[9]. سارع النّاصر بجيشه في حملة ثأرية للمرابطين المتوغّلين في أرضه، حيث أرغمهم على التّراجع، وتقفّي أثر جيشهم إلى أن انتهى به المقام عند الضّفة الشّرقية من وادي "منى" المذكور آنفا، مكان تحرير خطابه، الموجه ليوسف بن تاشفين، حيث أخبره فيه بتفاصيل ما وقع، وعرض أسباب إقدامه على فعل ذلك؛ وما كان ليوسف في تلك الظّروف غير الرّد عليه برسالة عِتاب طويلة، حيث اعتبر فعله بمثابة خيانة عظمى، وطعنًا في ظهره، كما يمكن أن يُستنتج من قوله: "ولو أنّ صاحب رومه (كذا)[10] المشتمل معه بعباءة الكفر، والشّرك[11]، المنتحل ما ينتحله من كلمة الزّور والإفك، مكانك من جِوارنا، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا، ما أتى من نصره فوق ما أتيت، ولا تولّى من انتشاله، والبغي في استقلاله إلاّ بعض ما تولّيت، ولا أنحى على المسلمين من مضارة إلاّ بدون ما أنْحيت، ولا بغاهم خبالا بأكثر ممّا بغيت".

3). محاور مضمون الوثيقة:

توحي القراءة المتأنّية لنصّ الرّسالة إلى وجود أربع موضوعات أساسية، وإن بدت للعيان متعدّدة المشارب: **أوّلا:** معاتبة النّاصر بن علناس على غزوته المباغتة للمرابطين، ومحاولة التّقليل من شأن الادّعاءات، والاحتجاجات التّي اتّخذ منها لنفسه ذريعة، وتبرير الكيفية التّي ردّ بها على العدوان المرابطي، المنتهك لحرمة الحدود الغربية لدولته الفتية من قبل. **ثانيا:** التّلميح إلى السّبب المباشر، الذّي دفع بالنّاصر خوض غمار الحرب ضدّ المرابطين من حيث هو بادرة مرابطية غير محسوبة العواقب في وقتٍ كان فيه هؤلاء بحاجة ماسّة إلى سِلْم حقيقي مع جيرانهم بالمغرب الإسلامي، وتحاشي مناوشاتهم الاستفزازية، قصد تأمّين ظهورهم، والتّفرّغ لمجابهة الخطر الصّليبي الدّاهم للإمارات الإسلامية بعُدْوة الأندلس، الواحدة تلو الأخرى، وما تكبّده المسلمون جرّاء ذلك من مآسٍ، ونهبٍ، وتشريدٍ. إذ جاء في نصّ الرّسالة بهذا الشّأن: "وننشدك الله الذّي ما تقوم السّماء والأرض إلاّ بأمره: ألم تكن عندما نزغ الشّيطان بينك، وبين أبي عبد الله محمّد بن يوسف رحمه الله، وتفاقم الشّأن، قد توفّر منّا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عمّا كانت النّصبة تستقدم إليه من بِدَارٍ أو سِباق، ولم نمدّ الجهة حقّ مَدَادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يَلْزم من جماهير أعدادها، ولا عَدَلْنا عن جهاد المشركين، ولا اقْبلنا إلاّ على ما يحوط حريم المسلمين، رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع أقصار. وأنت خلال ذلك تحشد، وتقوم بحمية، وتقعد، وتبرق غضبا، وترعد". **ثالثا:** التّأكيد على انصياع القبائل العربية للنّاصر في ذلك الوقت، والدّخول معه في تحالف متين ضدّ المرابطين، كما مرّ بنا في العنصر الأوّل من قبل. الشّيء الذّي أثار غائلة المرابطين، وجعلهم يعيبون على النّاصر إقحام العرب بوصفهم عنصرا دَخِيلاً في الشّأن القبلي الدّاخلي بين الصّنهاجيين بالمغرب الإسلامي في القرن (06هـ/12م)، وتحذيره من مغبّة انقلاب هؤلاء عليه في نهاية المطاف مرّة: "وإنّك لَمتداوٍ منهم بسُمّ، ومستريح إلى غمّ"؛ واتهامه بشراء ذممهم بالأموال، والمبالغة في ذلك مرّة ثانية: "فتعطيهم ما في خزائنك جُزَافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا، وتمنح أهل العشرات مئين، وأهل المئين آلافا"، وبطمع العرب في ثروته مرّة ثالثة: "ولولا مَالُك الذّي ثمّدوه، وشارفوا إلى أن يستنفذوه ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثا على إبالة بلواك". **رابعا وأخيرا:** تحمّيل النّاصر بن علناس المسؤولية التّاريخية المسبقة في حالة انتصار النّصارى على المسلمين بالأندلس آنذاك، وما قد ينجرّ عليه في حقّ المسلمين أمام الله، والتّاريخ: "وما في تلك الجزيرة -عصمها الله- من صالح، ولا طالح إلاّ يعرضك على الله تعالى، ويرفع إليه فيك عقِيرته بالشّكوى، وكلّ ما سُفِك من دم، وأُنتهك من مَحْرم، واستهلك من ذمم فإليك منسوب، وعليك محسوب، وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غدا، وإنّه لقريب".

4). تحليل مضمون الوثيقة:

حرصا منّا على احترام الأُطُر المحدّدة لهذه الدّراسة سلفا، سيقْتصر فحصنا في هذا النّسق العام على النّقطة ما قبل الأخيرة، أي نفي ضلوع عرب بني هلال في رحيل الحمّاديين من القلعة صوب بجاية بشكل مباشر أو غير مباشر، خلافا لما ذكرته الرّوايات التّاريخية، التّي حصرت سبب الرّحيل في مضايقات تلك القبائل، التّي شهد لها العدوّ قبل الصّديق بوقوفها إلى صفّ الحمّاديين آنذاك، وتمتعها بولاءٍ صادقٍ للنّاصر، كما يستشفّ بوضوح من مضمون نصّ هذه الوثيقة التّاريخية ذاتها.

وعليه يتعين علينا تقديم تفسير جديد لأسباب ذلك الرّحيل، حيث يمكننا إيعازه إلى ازدهار الدّولة الحمّادية نفسها على الصّعيد الدّاخلي، وبعض العوامل الخارجية المساعدة على ذلك إقليميا على الصّعيد الخارجي، كما هو مفصل في موضعه من الفقرات الموالية.

ففي هذه الفترة الزّمنية بالذات توفّر للدّولة الحمّادية مجموعة لا يستهان بها من الاستعدادات التّحفيزية، والمؤهّلات الطّبيعية الدّاخلية، في موازاة وجود بعض العوامل الخارجية المواتية لبلورة مسارها الحضاري الفتيّ للاندماج

في الرّكب الحضاري الإنساني بالانتقال من مصاف الدّولة المركزية إلى مصاف الدّولة الإقليمية، لم توفّيها الدّراسات الحديثة ما تستحقّه من فحصٍ دقيقٍ، وتحليلٍ عميقٍ، فيما يبدو.

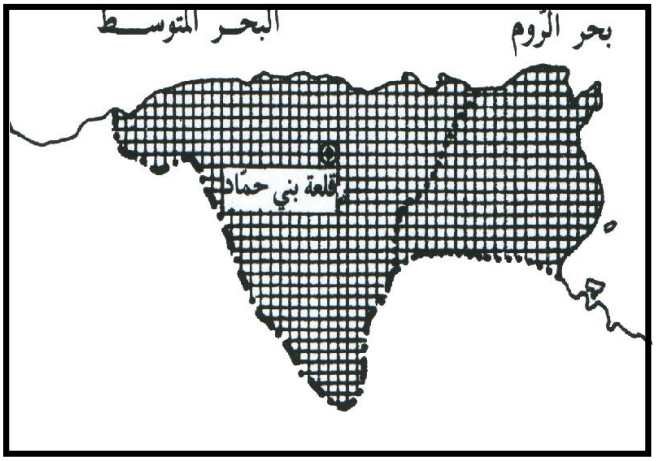
أ). الاستعدادات الذّاتية:

- ارتقاء الدّولة الحمّادية من رتبة الدّولة المركزية إلى الدّولة الإقليمية: لقد تقلّد النّاصر بن علناس زمام الأمر سنة (454هـ/1062م)، واستمرّ في سُدّة الحكم مدّة سبعا وعشرين (27) سنة كاملة، تمّ له في خضمها إعادة هيكلة الدّولة الحمّادية، هيكلة شبه جذرية على نسق ما أحدثه في مجال البناء، والتّشييد بالقلعة وبجاية على قدم المساواة[12]؛ والارتقاء بدولته من مستوى الدّولة المركزية ذات النّفوذ السّياسي المحدود، القائمة على الاقتصاد المعاشي البدائي بما فيه رعي قطعان الماشية، ومزاولة الزّراعة الرّيفية، واحتراف بعض الحِرف اليدوية الضّرورية لسدّ حاجات رعيتها، وتحقيق الاكتفاء الذّاتي لمجتمعها الصّغير في مختلف مناحي الحياة إلى دولة إقليمية متمدّنة، مترامية الأطراف، قائمة على التّنظيم الإداري، والجبائي المحكمين، والصّناعات الرّفيعة الموجّهة للمنافسة في الأسواق الدّولية، والتّصدير نحو الخارج، والانفتاح على الخارج[13]. وهو في حدّ ذاته إنجاز حضاري هام، يمكن عدّه بمثابة وَثْبة نوعية، ارتقت بالدّولة الحمادية من مرحلة العمران الرّيفي المنغلق على ذاته إلى رحاب العمران الحضري المتفتح على العالم الخارجي، كما تؤكّده وثائق علاقتها الدّبلوماسية والتّجارية مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

فقد اهتدى النّاصر بحنكته السّياسية الفذة إلى ضرورة بدء إصلاحاته من تقويم جهازه الإداري والجبائي على الصّعيد الدّاخلي، حيث وسعه الأمر في هذا الصّدد باستوزار "المنصور أبي بكر بن أبي الفتوح"، وهو المنصب الذي يُعدّ بمثابة أرقى سلطة تنفيذية في هرم السّلطة المركزية للدّولة؛ وقَسّم بلاده إلى ست مقاطعات إدارية رئيسة، أسند فيها إدارة غرب المملكة إلى أخيه "كبّاب"، الذي عيّنه واليا بمدينة مليانة لرصد تحرّكات المرابطين، وتجنّب اعتداءاتهم المحتملة؛ وأخيه الثاني "رمّان" على مقاطعة "حمزه" (البويرة حاليا)؛ بينما عيّن على مقاطعة نقاوس أخاه الثالث "خزر"؛ وعلى مقاطعة قسنطينة أخاه الرّابع "بلبار"؛ فيما اسند شؤون مدينة الجزائر، ومرسى الدّجاج لولده "عبد الأعلى"؛ ومهام مقاطعة أشير لولده الثّاني "يوسف"[14].

هذا فيما يخصّ التّنظيم الإداري، وجملة الإصلاحات العميقة المُدْخلة عليه، أمّا فيما تعلّق بالتّقويم المالي والجبائي، وفي غياب الدّراسات المحكمة بخصوص الموضوع في الوقت الرّاهن، فيمكن استنباط ذلك من خلال إقدام هذا الأخير على تشكّيل فرق من الشّرطة على هامش سرايا الجيش[15]، قصد حفظ الأمن الدّاخلي واستتبابه، حيث كانت منتشرة بشوارع المدن، وعبر الطّرق العمومية، والموانئ التّجارية، وفنادق القوافل، وفي كلّ ميدان عمومي آخر يستدعي حضور فِرق الشّرطة لفرض النّظام العام، وتوفير أسباب الرّاحة والطّمأنينة في نفوس الرّعية، وبقية جمهور الجاليات الأجنبية من حرفيّين، وتجّار، وطلبة علم، وغيرهم.

وإذا كان الإجراء السّابق لا يخرج عن نطاق الإصلاح الدّاخلي للدّولة، كما سلفت الإشارة، فإنّ تدعيمه بإجراءات جديدة على الصّعيد الخارجي، أملت على النّاصر فكرة توسيع نفوذه السّياسي شرقا على حساب المناطق التّونسية الشّاغرة، المُتَخلّى عنها من طرف الزّيريين العاجزين على مقارعة القبائل العربية هناك، وتفضّيلهم الاعتصام بمدينة المهدية المنيعة (الخارطة: 01)، حيث تمكّن من ضمّ مدينة "صفاقس"، وأحوازها بطلب من أهلها، بعدما كاتبه عاملها للزّيريين آنذاك "حمّو بن ملّيل البرغواطي" بالمبايعة على الطّاعة، ونبذ ولاءه السّابق للأمير "تميم بن المعزّ"؛ وكذلك مدينتي "قسيطلة" (توزر)، و"تونس" بقيادة واليهما "أحمد بن خرسان"[16]. فتمّ للنّاصر بموجب ذلك ضمّ جميع أنحاء المغرب الأوسط (الجزائر)، وأفريقية (تونس)، وصار مُلْك الحمّاديين على حدّ تشبيه صاحب كتاب الاستبصار له مُضاهيا لمُلْك الفاطميين بمصر[17].



الخارطة (1): الحدود السّياسية للدّولة الحمّادية في أقصى تمدّدٍ لها
في عهد النّاصر بن علناس، نقلا عن: "عويس عبد الحليم".

فاستأنست إليه الرّعية بموجب تلك الفتوحات الواسعة، ومنجزاته الحضارية الهائلة؛ وقصده العلماء، والأدباء، والحرفيون يخطبون خدمته[18]؛ وصفت الأجواء للحمّاديين بذلك للتّفرّغ إلى عملية البناء والتّشييد، وطرح عنهم أوزار الحرب جانبا، ولو لحين، وانتهاج سياسة خارجية جديدة قائمة على أسس حسن الجوار، والاحترام المتبادل، وتحاشي التّدخل في الشّؤون الدّاخلية للغير[19]. والانفتاح على المشرق الإسلامي بمستوى الانفتاح على الغرب الصّليبي، ممّا مكّن الدّولة الحمّادية من النّهوض بسرعة فائقة، وانتزاع مكانة مرموقة في مجال النّشاط التّجاري، والتّبادل الثّقافي العابر للقارّات بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط رغم تشنّج العلاقات بين المسلمين والمسيحيين الغربيين آنذاك.

- **موقف الدّولة الحمّادية من حروب الاسترداد بالغرب الإسلامي:** أفضت سياسة حسن الجوار، وتحاشي التّدخل في شؤون الغير، المنتهجة من لدن الحمّاديين حيال القضايا العويصة التّي ألمت بالغرب الإسلامي آنذاك بتحقيق الرّفاهية، والطّمأنينة، والازدهار الدّاخلي، خصّوصا إذا ما وُضِع بالحسبان جنوح الحمّاديين إلى الحياد المطلق في معارك الحملة الصّليبية الأولى بين المسيحيين من جانب، ومسلمي الأندلس، والمرابطون من جانب آخر، حيث بدأت العملية تؤتي أُكُلها، كما يستشفّ بوضوح في تشييد مدينة بجاية للنّاصر بن علناس عام (457هـ/1065م)، وتسميتها باسمه "النّاصرية" في عزّ فترة ازدهار وتقدم الدّولة الحمّادية سياسيا، وجغرافيا، وعُمِرانا، كما يستشفّ من تجديد جلّ مباني القلعة.

ممّا انعكس إيجابا على ازدهار تجارتها الدّاخلية بين مختلف مقاطعاتها، وحاضرتها المركزية من جهة، وتمديد شبكة مبادلاتها الخارجية مع مختلف الأقطار؛ فصارت مدينة بجاية محلّ استقطاب أنظار الجميع، ومركزا اقتصاديا وتجاريا دوليا رائدا في الضّفة الجنوبية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط، لا تضاهيه سوى مدينة الإسكندرية المصرية على حدّ شهادات المؤرّخين العرب القدماء، وتأكّيد نظرائهم الأوربيين في الوقت المعاصر[20].

- **توفّر المقوّمات الأساسية لإقامة عمران حضري متطوّر:** فهذه الحالة المتقدمة من الرّفاهية والازدهار العارم، لم تأتِ من قبيل الصّدفة، وإنّما هي ثمرة اصلاحات اجتماعية-ثقافية عميقة، طرأت على تركيبة سكان مدينة القلعة في عهد النّاصر بن علناس على وجه الخصوص. أضف إلى ذلك تنوّع، وكثرة ثروات الخام الطّبيعي، التّي كانت تحوزها الدّولة الحمّادية عبر مختلف مقاطعاتها الواسعة، حيث عرف أميرها النّاصر كيف يستفيد من خراب عاصمة إقليم المغرب الأدنى، مدينة القيروان العريقة، كما يفسّره انبهار رعيّتها به من جهة، ومن جهة ثانية مَسِير أهل الخبرة الكبيرة في مجال المعرفة العلمية، وأرباب الحِرف والصّنائع، والتّجارة العابرة للأقاليم من هذه المدينة إلى مدينة القلعة، قصد تدعيم ومؤازرة صُنّاعها المحلّيين، وكذا تجنّب كساد منتجاتهم، وإفلاسهم المحتمل[21]، حيث أعطى دفعة قوّية لانبعاث

الاقتصاد، والعمران الحمّادي في ظرف زمني قيّاسي، وتحقيق الاكتفاء الذاتي، وتعدّيه إلى فائض عال الجودة في مستطاعه التّرويج بالأسواق الخارجية، دون مشقة، أو الخشية عليه من تحديات المنافسة التّجارية الشّرسة.

وإلى جانب هذه الشّريحة النّشطة، الوافدة على القلعة من الخارج في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة بأمسّ الحاجة إلى خبرتهم، ونشاطهم الدّؤوب، يُسجّل توفّر المقوّمات الطّبيعية لإقامة زراعة واسعة، في مقابل وجود مساحات رعوية هائلة لتربية قُطْعان الماشية الكافي لسدّ متطلبّاتهم الغذائية من اللّحوم، وتوفير المادّة الخام من الصّوف النّاعمة، والوبر التّي تحتاجهما صناعة النّسيج الحمّادية، الذّائعة الصّيت في مختلف أنحاء العالم القديم على حدّ شهادة الإدريسي[22]. وكذلك وجود المناجم المتنوّعة على قمم، وسفوح الجبال المطلّة على السّاحل المتوسطي مباشرة، وعلى امتداد طويل، يمكن تقديره بأكثر من ستمائة كيلو متر، كما يمكن ضبط امتداده الجغرافي بين مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنّة) غربا، ومدينة القالة، أو كما كانت تعرف وقتها بمرسى الخرز شرقا.

أضف إلى ذلك وفرة الخلجان الطّبيعية على هذا الشّريط السّاحلي، حيث شكّلت بستة وعشرين (26) ميناءً طبيعيا محميا من هَبّات الرّياح الغربية، والرّياح الشّرقية الموسمية العاتية، حسب إحصاء البكري لها[23]، كان من أبرزها على الإطلاق، أربعة هي من الشّرق إلى الغرب: مرسى القالة، الذي أُقيمت فيه دارا لبناء السّفن التّجارية والحربية على غرار ميناء بجاية، قصد وقف حملات القرصنة المسيحية المتكالبة على السّواحل الجزائرية آنذاك[24]؛ ومرسى بونة، أو عنّابة الحافل بالجاليات المسيحية الإيطالية، والجالية الأندلسية الإسلامية، الذي بلغ مقدار دخله دون حساب جباية دار المال بعشرين ألف دينار ذهبية كاملة[25]؛ ومرسى بجاية الذي يعتبر القلب النّابض لحركة التّجارة الخارجية الحمّادية، حيث كانت تحلّ به الأساطيل والقوافل من كلّ حدب وصوب، محمّلة بالسّلع والبضائع المتنوّعة جيئة وروَاحًا؛ وأخيرا مرسى دلّس، أو تادلس الذّي تميّز بتعامله الواسع مع الأندلس على وجه الخصوص.

ب). العوامل الخارجية المساعدة:

- استحواذ المرابطين على منابع الذهب، واحتكارهم للطّرق الموصلة إليه: كانت هذه المهمّة من قبل، حِكْرا على أمراء الخلافة الفاطمية المقيمين بالمغرب الأدنى إلى غاية رحيلهم إلى مصر، وأموي الأندلس؛ ثمّ أتى المرابطون المستفيدون من ذلك الوضع الجديد، الذّي آل إليه المغرب الإسلامي، ولربّما كان من أبرز ما حفّزهم على ذلك، هو وجود رباط إمامهم "عبد الله بن ياسين" بالحوض الأدنى من روافد نهر السّنيغال منذ عام (433هـ/1041م)، حيث أدّى لاحقا دورا هامّا في مجال تأمّين الطّرق التّجارية المرابطية الثّلاث، الرّابطة بين المغرب الأقصى، ومملكة غانة موطن تبر الذهب العال الجودة من سطوّ قطّاع الطّرق[26].

وتوقف في المقابل حركة الطّريقان القديمان الرّابطان بين بلاد السّودان في الجنوب وبلاد المغربين الأدنى (تونس)، والأوسط (الجزائر) بالشّمال، حيث كان منطلق الطّريق الأوّل منهما من عاصمة المغرب الأدنى، مرورا بغدامس في أقصى غرب التّراب اللّيبي، وانتهاءً ببلاد مالي والنّيجر؛ بينما كان الطّريق الثّاني يربط ما بين عاصمة الرّستميّين "تاهرت"، مرورا بمدينة "سدراتة" الواقعة بالقرب من ورقلة اليوم بالمغرب الأوسط، ثمّ تغازى، موضع تفرّعه إلى فرعين ثانويين، أحدهما يتجه غربا نحو "أودغست"؛ فيما ينعطف الثّاني شرقا صوب مدينة "كانو"، الواقعة بمنطقة بحيرة التّشاد، وبالضّبط بالقرب من إحدى روافد نهر النّيجر[27]، والاكتفاء بالطّرق الثّلاث الآنفة الذكر، الموصلة بين المغرب الأقصى موطن حواضر الملثّمين بمدن مملكة غانة، مرورا بالأراضي الصّحراوية والموريتانية المجاورة[28].

فتكرّست بذلك سيطرة المرابطين واحتكارهم بشكل يكاد أن يكون مطلقا للتّجارة الصّحراوية، القائمة على مقايضة البضائع بالذهب، لاسيما بعدما أحكمت سيطرتها على المناطق الممتدّة بين جبال "الدّرن" شمالا إلى أعماق الصّحراء الإفريقية الكبرى جنوبا[29]. وفي مقدمتها مدينة "أودغست"، التّي فُتحت أيام أميرهم الأوّل "أبو بكر بن عمر" سنة (446هـ/1054م)، وتحمّيل أهلها "السّنكيون" على اعتناق الإسلام.

إذ كانوا يقايضون ذهب مملكة غانة، المستخرج من مناجم "نقّارة"، الواقعة على ضفاف نهر السّنيغال إلى جانب بعض المواد الثّمينة الثّانوية الأخرى، مثل العاج، وعود الأبنوس بالملح المستخرج من مناجم "أوليل"، "وتغزى"[30]. وبعض المواد المصنّعة، شأن الأقمشة، والمصنوعات الجلدية، والمعدنية المتنوّعة، والزّجاج، والأصداف، والحليّ، والقطران، والعطور، والتّمر، والمرجان المفصّل خرزا بمدينة سبتة السّاحلية[31]؛ ممّا مكّن الدّينار الذهبي المرابطي من اكتساب سمعة غير مسبوقة في منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط بأسره، ابتداءً من عام (464هـ/1071م)، تاريخ مبادرة الأمير يوسف بن تاشفين بضرب النّقود الذهبية[32]، واصطلح عليه هناك بالمثقال المرابطي، حيث لم يتوان بعض ملوك أوربا في تقليده مثل "ألفونس بن فاردننذ"، ملك قشتالة وليون بإسبانيا.

- **ارتفاع حدّة القرصنة الصّليبية على السّواحل الحمّادية:** شهد القرن (5هـ/11م) ظهور قِوَى بحرية جديدة حلّت محلّ أساطيل المسلمين والبيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط، إنّها أساطيل الجمهوريات الإيطالية، التّي أثارت الهلع والرّعب في نفوس المسافرين، والتّجار، وسكّان السّواحل، لما كابدوه على يديْها من غارات خاطفة؛ وما كادت تمضي عقودا قليلة على تاريخ نشأتها، حتّى عادت تسيطر على كامل جزر المتوسّط بدءً بجزيرة صقلّية، مرورا بجزيرتيْ "كورسيكا" و"ساردانيا"، وجزر البليار الثّلاث (مايورقة، ومنروقة، ويابسة) في الحوض الغربي من البحر المتوسط؛ وانتهاء بجزيرة "مالطا"، و"كريت"، و"قبرص" بالحوض الشّرقي منه؛ زيادة على هيمنتها على النّقل البحري من سواحل الشّام إلى سواحل الأندلس[33].

فقد باشروا عدوانهم المتكرّر على السّواحل الحمّادية في الجنوب ابتداءً من عام (426هـ/1034م)، تاريخ غزوهم ساحل مدينة عنّابة، وما والاه لاحقا من غزوّ كلّ من: بجاية عام (428هـ/1036م)، واستيلائهم على سفينة تجارية كبيرة هناك، واختطافها بمن عليها[34]، رغم المعاهدات والمواثيق المبرمة بين الطّرفين، كما يستشفّ من اعتدائهم على سواحل جيجل في عام (537هـ/1142م). الشّيء الذي حمّل النّاصر بن علناس للإقدام على بناء أسطول بحري صغير، لكن ذو فعّالية كبيرة فيما يبدو، وتخصّيص له قاعدتين بحريتين إستراتيجيتين، أولهما على مستوى مدينة القالة شرقا، والأخرى بمدينة بجاية القلب النّابض الجديد للدّولة غربا، وتوفير الأمن المطلوب لحركة تجارتها الخارجية المنتعشة حديثا؛ ذلك الأسطول المجدّد من طرف حفيده الأمير "يحيّ بن العزيز" في نهاية عمر الدّولة الحمّادية بلا جدوى[35].

- **أثر الأساطيل التّجارية في فكّ العزلة بين الأقاليم:** مع حلول منتصف القرن (5هـ/11م) لاحت في فضاء منطقة المتوسط ظاهرة جديدة، مشابهة إلى حدّ بعيد ظاهرة وسائل تكنولوجية الاتّصال اليوم، حيث تمكّنت حركة النّقل البحري للأشخاص والبضائع من توفير الرّاحة، والأمن، واختزال مسافات، ومدّة السّفر على المسافرين، والتّجار بشكل مُغْرٍ، مقارنة بما كانت عليه مع القوافل في الطّرق البرّية من قبل. وتمّ بموجب ذلك ربط بلدان المتوسط تجاريا وثقافيا في دارة إقليمية واحدة، رغم تباين أنظمة بلدانه اجتماعيا، وعقائديا من جهة، ومن جهة أخرى تأجّج العداء التّاريخي بين المسلمين والمسيحيين بالمنطقة، حيث اختارت الدّولة الحمّادية في هذا النّسق العام موقف "الحيّاد" كما مرّ بنا من قبل؛ وعادت البضائع، والسّلع، والأشخاص، والأفكار، والكتب، تجوب مختلف موانئ بلدان المتوسط، دون أن تتأثر بالأجواء المكهربة جرّاء الحملات الصّليبية المتأجّجة[36].

الخاتمة:

وصفوة القول، فإنّ رحيل الحمّاديين من القلعة إلى بجاية على عهد الأمير "النّاصر بن علناس"، لم يكن بسبب الغزوّ العربي الهلالي، كما ادّعت جلّ المصادر التّاريخية العربية المؤرّخة لهذا الحدث التّاريخي المصيري؛ ولا رغبة الانتقام من بني عمومتهم الزّيريين كما قال بذلك ابن الأثير، وإنّما هو ثمرة نهضة عمرانية وحضارية شاملة، أفضت إلى إحداث تحوّلات ثقافية، وحضارية عميقة في الدّولة؛ ساعدها على ذلك فيما يبدو، رزمة من العوامل الخارجية المواتية، حتّمت على

الحمّاديين أنفسهم من التّخلّي على العاصمة الأمنية (قلعة بني حمّاد)، والبحث عن عاصمة سياسية واقتصادية جديدة تستجيب لتلك التّحديات، والرّهانات الكبيرة، حيث وقع اختيارهم على موقع بجاية، وتأسيس عليه مدينة النّاصرية، والارتحال إليها في عام (460هـ/1067م). إذ يمكن عدّ هذا الرّحيل في هذا النّسق العام بمثابة نقلة نوعية، أملتها ظروف التّطور السّريعة التّي عرفتها الدّولة الحمّادية في سياق حضاري إقليمي طموح، أقدم على تنفيذ مشروعه "النّاصر" بنجاح منقطع النّظير.

علما أنّ العاصمة الحمّادية قد كانت في بادئ الأمر بأشير خلال المرحلة الانفصالية للحمّاديين على بني عمومتهم الزّيريين، قبل أن ينتقلوا بها في المرحلة الثّانية، والمتمثّلة في مرحلة تثبّيت، وتوطّيد العرش الحمّادي بالمغرب الأوسط، وما كان يعتريها من حروب وثورات متتالية، حيث وقع اختيارهم الصّائب على موقع مدينة "القلعة" ذات الدّور العسكري المميّز، كما يستشف من تشبيهه بموقع قلعة "أنطاكية" في بلاد الشّام لدى ياقوت الحموي[37].

ذلك الموقع الذي رصده جدّهم زيري بن مناد أوّل مرة في آخر معركة هناك للثّائر الخارجي عن الفاطميين "أبو يزيد مخلد بن كيداد"، قبل أن يستقرّ بها المقام في نهاية المطاف ببجاية على منوال ما حدث مع العاصمة الفاطمية بالمغرب الأدنى التّي رُحِّلت مرّتين كما هو معلوم، ومرّة ثالثة إلى القاهرة بمصر. وهو الشّيء نفسه تكرّر مع تاريخ العاصمة المرابطية المعاصرة للدّولة الحمّادية تقريبا، حيث كانت في بادئ الأمر بمدينة أغمات على عهد أبي بكر بن عمر، فمرّاكش مع مجيء ابن عمّه يوسف بن تاشفين، ثمّ مدينة فاس في نهاية المطاف. وكذلك ما حدث مع العاصمة الزّيرية نفسها أيضا، ولكن هذه الأخيرة لم تكن مخيّرة في ذلك، شأن نظيراتها الفاطمية، والحمّادية، والمرابطية، حيث وقع ذلك تحت تأثير وضغط الغزوّ الهلالي السّاحق فعلا.

الهوامش:

[1] حول تفاصيل هذه الحادثة المشهودة، التّي جرت وقائعها بين الجيش الحمّادي ونظيره الجيش الزّيري، ومَن حالفهما بالقرب من حاضرة القيروان التّونسية، وما انجرّ عليها من نتائج وخيمة على الحمّاديين بسبب الهزيمة النّكراء التّي مُنيت بها فِرَق جيشهم، ومن حالفه من القبائل الزّناتية الأمازيغية، وقبيلتيْ عُدي والأثبج العربيتين، ينظر: ابن الأثير، (أبو الحسن عليّ بن أبي مكرم)، الكامل في التّاريخ، منشور من غير تحقيق؛ نشر مشترك بين دار صادر، ودار بيروت، 1966، الجزء 10، ص ص 44-45.

[2] ابن الأثير، مصدر سابق، الجزء 10، ص 47.

[3] تؤكّد الوقائع التّاريخية بأنّ هذه القبائل العربية قد كانت منذ مرحلة تاريخية متقدمة، مجرّد وسيلة ضغط فعّال لقلب موازين القِوَى في يد الخصوم السّياسيين المتنافسين، متى استدعت الضّرورة ذلك. فقد وُظّفوا كدرعٍ واقٍ للحركة القُرْمُطية ضدّ الخلافة العباسية في بادئ الأمر؛ ثمّ من قِبل العبّاسيين لوقف المدّ الفاطمي عليهم من الجهة الغربية؛ ثمّ من طرف الفاطميين أنفسهم أيضا في مجابهة وُلاّتهم الزّيريين المنشقّين عليهم ساعة انتقالهم إلى مصر؛ ثمّ إقحامهم من طرف الأمير الزّيري "تميم بن المعزّ" في الصّراع القَبَلي الدّاخلي الصّنهاجي بين البيت الحمّادي، والبيت الزّيري، المتنازعيْن على زعامة القبيلة، وريادة المنطقة؛ ولو أنّ وجه الإقحام هذه المرّة، كان مختلفًا، حيث كانت القبائل العربية في الأحداث الآنفة الذّكر تُقاتل متّحدة إلى جانب طرف ما، على خلاف الصّراع الصّنهاجي، أين انقسمت عشائرهم بين مُناصرٍ للحمّاديين، ومناصر للزّيريين. وانتهاءً بتسخّير قبائل بني هلال، دون بني سليم من طرف الحمّاديين في إخماد مناوشات القبائل الزّناتية بالغرب، ووضع حدّ لأطماع المرابطين التّوسعية في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، كما يؤكّد ذلك مضمون هذه الوثيقة التّاريخية الهامّة.

[4] أكثر تفاصيل حول نصّ الرّسالة ينظر: ابن بسّام الشّنتريني، (أبو الحسن)، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عبّاس، نشر دار الثّقافة، بيروت، 1979، الجزء الثّاني، ص ص 257-260؛ عصمت عبد اللّطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، 1991، ص ص 78-80.

[5] هو أبو بكر محمّد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي، الملقّب بابن القصيرة، كاتب وأديب أندلسي حاذق، نشأ وترعرع في دولة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية، ولما استولى النّصارى على طُليطلة، وأشتدّ بأسهم على ملوك الطّوائف بالأندلس، أُنتدبه المُعتمد للاضطلاع بمهام السّفارة

المتكرّرة على يوسف بن تاشفين بحضْرته في مرّاكش؛ فكان له بموجب ذلك دورا كبيرا في مجريات الأحداث التّي أحاطت بمعركة الزّلاقة عام (479هـ/ 1086م) على حدّ قول ابن عبد المنعم الحميري في كتابه الموسوم بـ: "الرّوض المعطار"، واستيلائه على دولة المعتمد، استيلاءً قلّ نظيره على حدّ قول ابن بسّام في ذخيرته، غير أنّ هذا الاستيلاء لم يدم طويلا فيما يبدو من استقراء مجريات الأحداث بالأندلس آنذاك، حيث نكّبه يوسف بن تاشفين، كما فعل ببقية ملوك الطّوائف، وأمرائها عقب معركة الزّلاّقة، وأفل نجمه لمدّة ثلاث سنوات كاملة، ثم عاود الظّهور من جديد بسبب ورود كتاب على يوسف بن تاشفين من مصر، وحاجته لهذا الأخير بغرض الردّ عليه في عقب الوفاة المباغتة لكاتبه الخاصّ "عبد الرحمن بن أسباط". ومنذ ذلك الحين أدناه من نفسه، ودخل رسميا في خدمة البلاط المرابطي طيلة ما تبقى من عهدة يوسف بن تاشفين، وعهدة ولده عليّ إلى أن وافته المنية بمدينة مرّاكش عام (508هـ/1114م)؛ مُخلّفا وراءه مؤلّفات أدبية كثيرة، كان من جملتها هذه الرّسالة، وتِسْعُ رسائل أخرى تم نشرها له ضمن مجموع موسوم بـ: "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين". أكثر تفاصيل عن ترجمته، ينظر على سبيل المثال: ابن بسّام الشّنتريني، مصدر سابق، ص ص 239–268؛ محمّد عليّ مكّي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مكتبة الثّقافة الدّينية، القاهرة، الطّبعة الأولى، 2004، ص ص 9–10.

[6] وهو أحد الوديان الكبرى، الموسمية الجريان بغرب القطر الجزائري، حيث ينبع جنوبا من أراضي ولاية تيارت الحالية، قبل أن يعبر أراضي ولايتيْ غيليزان، ومستغانم بهذا التّرتيب شمالا في مسار شديد الالتواء والتّعرّج، لينتهي مصبّه في نهاية المطاف بساحل البحر الأبيض المتوسط.

[7] كتاب الحِلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية، لكاتب أندلسي مجهول، تحقيق سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء، الطّبعة الأولى، 1979م، ص ص 28، 33.

[8] السّلاوي، مرجع سابق، جزء 02، ص ص 31-32.

[9] ابن الخطيب، (لسان الدّين)، أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العبّادي، ومحمّد إبراهيم الكتاني، نشر دار الكتاب، الدّار البيضاء، المملكة المغربية، 1964، الجزء 03، ص ص 277-278.

[10] أكّدت المصادر التّاريخية الغربية، أنّ الأساطيل الإيطالية قد انضمّت فعلا إلى صفّ الملك المسيحي في معركة الزّلاّقة الأولى سنة (479هـ/1086م)، حيث شنّت الأساطيل النّورماندية غارة على سواحل مدينة بلنسية، والمريّة، معقل الأسطول الأندلسي أيام الأمويين، وسلب منهما ما أمكنهم سلبه، وفرضهم على الأولى إتاوة ضخمة، مقدارها 113 ألف دينارا ذهبيا مرابطيا؛ فيما فُرض على الثّانية إتاوةً مقدارها عشرون ألف دينارا مرابطيا أيضا، أكثر تفاصيل حول الموضوع، ينظر على سبيل المثال: أرشيبالد، (لويس. ر.)، القوى البحرية في حوض المتوسّط (500-1100م)، تعريب أحمد موسى، مراجعة وتقديم، شفيق غربال، نشر مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، بدون ذكر تاريخ الطّبع، ص 372.

[11] تشير الرّسالة هنا إلى ملك المسيحيين الإسبان "ألفونس السّادس"، الآنف الذّكر.

[12] ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 97.

[13] أكثر تفاصيل ينظر على سبيل المثال: الغنيمي عبد الفتّاح مقلد، موسوعة المغرب، نشر مكتبة مذبولي، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1994م، الجزء الرّابع من المجلّد الثّاني. ص ص 286-360.

[14] العربي، (إسماعيل)، دولة بني حمّاد؛ ملوك القلعة وبجاية. نشر الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزّيع، الجزائر، 1980، ص ص 161-162.

[15] الغنيمي، مرجع سابق، ص 358.

[16] العربي، مرجع سابق، ص ص 169-170.

[17] Kitab el–Istibçar, Traduit de l'Arabe par: FAGNAN, (E). Edité dans: Recueil des Notices et Mémoires de la société archéologique du Département de Constantine. 2ème volume de la quatrième série, trente-troisième volume de la collection, Année 1899, Constantine, Alger et Paris, 1900, p 35.

[18] ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 97.

[19] الغنيمي، مرجع سابق، ص ص 360–393.

[20] ينظر: البكري، (أبو عبد الله بن عبد العزيز)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر وترجمة: البارون دوسلان ماك كيقن، طبع أدولف جوردان، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1911، ص ص 82، 167؛ الإدريسي (أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد العزيز)، المغرب من كتاب نزهة المشتّاق، حقّقه ونقله إلى الفرنسية: محمّد حاج صادق، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 116؛ الحميري، (أبو عبد الله محمّد بن عبد المنعم)، الرّوض المعطّار في خبر الأقطّار، حقّقه: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1984، ص 80، عمود 1؛ ابن الفضل، (شهاب الدّين أحمد بن يحيى)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قسم أفريقية، والأندلس)، نشر: حسن حسين عبد الوهاب،

مطبعة النّهضة، تونس، بدون ذكر تاريخ الطّبع، ص 9؛ عويس، (عبد الحليم)، دولة بني حمّاد؛ صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، نشر دار الشّرق، بيروت، الطّبعة الأولى، 1980، ص ص 104، 226؛ العربي، مرجع سابق، ص ص 190، 243؛ هاينرتش، (فون مالتسان)، ثلاث سنوات في شمالي غربي إفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، نشر الشّركة الوطنية للنّشر، الجزائر، 1979، الجزء الثّاني، ص ص 113-121؛ El Istibçar, Op.cit, pp 32-34.

[21] الغنيمي، مرجع سابق، ص ص 324–325.

[22] الإدريسي، مصدر سابق، ص 117.

[23] البكري، مصدر سابق ص 55.

[24] نفسه، ص 55؛ الإدريسي، مصدر سابق، ص 116.

[25] نفسه، ص 55.

[26] سعدون (عبّاس نصر الله)، دولة المرابطين في المغرب والأندلس؛ عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. نشر دار النّهضة العربية، بيروت، الطّبعة الأولى، 1985، ص ص 26، 28.

[27] الطّيبي، (أمين توفيق)، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، نشر الدّار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، 1984. ص ص 303، وما بعدها.

[28] كان ذهب السّودان إذن، يَنْساب إلى المغرب الأقصى أوّلا، وذلك إمّا عبر الطّريق السّاحلي الموازي للمحيط الأطلسي، أو عبر طريق ثان مواز له بالدّاخل، حيث لا يبعد عنه كثيرا، أو عبر الطّريق الثّالث الممتدّ بين سجلماسة، وأودغست، ثمّ ينقل من هناك إلى بقية أنحاء المنطقة المتوسطية على أيدي المرابطين أنفسهم.

[29] سعدون، مرجع سابق، ص 13.

[30] نفسه، ص 16.

[31] الإدريسي، مصدر سابق، ص 108؛ الطّيبي، مرجع سابق، ص 304.

[32] ابن عذارى، مصدر سابق، الجزء 4، ص 22.

[33] أرشيبالد، مرجع سابق، ص ص 361، 384.

[34] العربي، مرجع سابق، ص ص 252-253.

[35] الغنيمي، مرجع سابق، ص ص 355، 356.

[36] GOITEIN (S. D), «The unity of Mediterranean world in the 'middle' middle ages». In: Studia Islamica, T 12, 1960, p 30.

[37] الحموي، (شهاب الدّين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي البغدادي): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1995، الجزء 4، ص 390، عمود 2.